الأسرة المصرية

تنحدر الى الهاوية

لحضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا

لشد ما أجزع ويتولانى الخوف على الأسرة المصرية ومستقبلها حين أرى نساءنا وبناتنا منحدرات فى طريق الاستهتار ، منصرفات عن مملكة البيت إلى عبث يحسبنه رقيا ومدنية وإدراكا لشأن المرأة الأوروبية ، وما هو فى الحقيقة إلا تقليد ساذج كتقليد القردة لا روية فيه ولا بصيرة . وأدهى من ذلك وأنكى أننا ، نحن آباءهن وأزواجهن واخوتهن ، نساق معهن فى هذا التيار الوبيل لا يثنينا عنه حزم الرجولة ولا إرادة أولى القوام .

دعنى من بيوت الفقراء ، فليس لدى نسائها ورجالها ما يسمح بهذا العبث . ودعنى أيضا من بيوت الريف ، فلسأوها حتى اليوم فى شبه عصمة من هذا التلف ، بما درجن عليه من أصول صالحة وتقاليد مرعية ، وبما فى طبيعة الحياة الريفية نفسها من بعد عن لهو المدينة وقصفها .

ولست بغافل عن أن دبيب المدنية الزائفة أخذ يدب إلى بعض بيوت القرى الكبيرة والمدن الصغيرة ، ولكنى لا أراه قد بلغ المدى الذى يدعو إلى الخوف أو الجزع ، وأظن أن استئصاله ممكن إذا عرفنا كيف نكافح التيار الجارف الذى يجتاح بيوت المدينة ، ذلك التيار الفاجر الذى اتخذ فى بعض الصحف والمجلات خلال هذه السنوات الأخيرة أسماء عجيبة مضحكة ، كقولهم : حياة " الهاى لايف " و " الأوساط الراقية " و " الأرستقراطية المصرية " وغير ذلك مما يدل على عدم فهم المعانى التى وضعت لها هذه الكلمات .

سمت نساؤنا بحفلات استقبال يقيمها الغربيون فى بيوتهم أو حضرن بعضها ، فاستهوتهن هذه البدعة حتى أنستهن ما بيننا وبين الغربيين من اختلاف فى الأديان والتقاليد والآداب والأسس الاجتماعية ، وصرنا نرى فى الصحف والمجلات المصورة أخبارا وصورا لحفلات استقبال ، وحفلات كوكتيل ، وجاردن بارتى "Garden Party" تقام فى بيوت أولئك الذين يسمون أنفسهم أو يسميهم الناس "الطبقة الراقية" . وهذه الحفلات تجمع الرجال والشبان والنساء والعذارى وتحكم بينهم صلة التعرف وتمهد لهم وسيلة التودد والتقرب والتمازح ، كل هذا والجنس اللطيف فى أبدع زينة وأشف ثياب ، وهذه الفتاة تتبارى مع أترابها فى صنع مزيج الكوكتيل ، وهذه الأخرى تتولى تقديمه الى الأضياف والأصدقاء ، ثم ينهض البعض إلى الرقص فتنعقد الأيدى بالأيدى وتنطوى الأذرع على الخصور وتتقارب الصدور

من النحور وتلعب بالرءوس صنوف الخمور وروائح المساحيق والعطور ، ويرى الوالد هذا الشاب يسر فى أذن ابنته كلمات فيحمر وجهها وتبتسم ابتسامة الرضا الخجي أو الاستسلام الخجول ، ويرى ذلك الزوج زوجته وقد اختلى بها أحد المدعوين فى ركن من أركان البهو يقول لها وتقول له مالا يعلمه إلا علام الغيوب . ولعمرى فيم يكون الاستحياء بعد أن زالت الحجب وتلاصقت الأجسام وتهامست الشفاه وسهل التناجى وأبيح التلميح والتصريح ، وبعد أن صارت رحلة الغرام الطويلة التى أجملها شوقى حين قال :

نظرة ، فابتسامة ، فسلام فكلام ، فموعد ، فلقاء

تلك الرحلة التى كانت فيما مضى تستغرق الأعوام أو الشهور ، صارت تقطع كلها فيما بين بداية السهرة ونهايتها ، لأن مدنية العصر قد اختصرت الأبعاد وأزالت الفوارق وزللت العقبات ؟

إنى — وأنا أحد المحضرمين الذين حضروا العهدين وعرفوا أخلاق الجيلين — أقرر أن انتقالنا من التقييد القديم إلى التحرر الجديد قد جاء طفرة لا تدرجا وانقلابا لا تصورا . فلا زلت أذكر كيف كان من أعيب العيب فيما مضى أن تطل سيدة من نافذة أو أن يرى الناس وجهها أو شيئا من جسمها . ولا أزال أذكر أننا إلى عهد قريب كنا نرى الدم يعلى فى عروق الرجال ، وغريزة الانتقام تتحرك فى نفوسهم ، إذا علموا أن اسم واحدة من نساء الأسرة قد ذكر فى مجلس أو رأوه مطبوعا على صفحة جريدة ، وأنهم كانوا يرون فى ذلك انتهاكا للحدود وإيذاء للعرض وتهجما على الشرف .

لست أحمد هذا الغلو فى التقييد ولا هذه المبالغة فى الحذر ، ولكنى أسائل نفسى : ماذا جرى ؟ وكيف بردت هذه الحمية الحامية وتراخت هذه الزجولة المتأججة حتى صارت النساء والعذارى يسعين إلى مصورى الصحف ومندوبى المجلات كى ينشروا صورهن وأخبار حفلاتهن ، وصار الآباء والأزواج والإخوة والأبناء يسهلون لهن هذا المطلب ويسرون عندما يرون صورا لزوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم وهن عاريات النحور والسواعد والظهور يشربن الخمر ويقدمنها للغير ويراقصن الأجنبى فى عير ما تورع ولا استحياء ؟ بل أسائل نفسى كيف فترت الغيرة ورخص الشرف وهان العرض حتى لترى الزوج يبتسم لبنته أو الأخ لشقيقته وهو يراها تروح وتغدو متهادية على الشاطئ فى لباس هو العرى بعينه ، بل لعله أشد وقاحة من العرى ، إذ هو يعين من أجزاء الجسم ويهدف من أسراره ما لو كان عاريا لما تعين واستهدف ؟

كم وددت لو استطعنا أن نقف بين قيود الماضى وإباحة الحاضر وقفة حكيمة وأن نتخذ سبيلا وسطا بين جمود " المحافظين " وتطرف " المجددين " .

* * *

والخمر ، ما خطبها ؟ وما مصيرنا إذا فشت فى النساء ونحن ننهى عنها الرجال ؟

إن حياة الأسرة لتفسد إذا أدمن ربها الخمر ، فكيف تكون الحال إذا أدمنتها ربتها أيضا ؟ وكيف لا تنتقل العدوى إلى البنين والبنات ؟ وأية ميزانية للبيت تنتظم ، وأية نشأة ضالة ينشأها الأولاد ، وأى اختلال وتمزق يصيبان الجيل القادم ويمتدان إلى ما بعده من الأجيال ؟

والقمار ؟ ألا نرى أن ألعاب البوكر والبريدج والكونكان قد فشت فى كثير من بيوت " الطبقة الراقية " وأخذت تتحدر منها إلى بيوت الطبقة الوسطى ؟ اللهم إن هذا فتك آخر بالثروات وبالميزانيات ، ونكبة أخرى على الأخلاق والآداب ، وداء جديد يتغلغل فى جسم الأسرة المصرية وينضم إلى غيره من الأدواء ، فرحماك يارب رحماك !

رضينا بتردد النساء والبنات على دور السينما ، وقلنا لعل هناك بجانب المفاسد والمغريات والاستهواءات دروسا خلقية نافعة وعظات اجتماعية صالحة ، وأقنعنا أنفسنا بأن فى المرئيات المسلية والمشاهد الواعظة عبرا وإيحاءات تعزينا بعض العزاء عن مناظر الحب والفسق والخطف والابتذال ، ثم أدخلنا فى روعنا أنه ما دامت الأخلاق مصونة فى " البيت " فلا خطر من السينما أو أن الخطر هين لا يستحق حربا ولا مكافحة .

وسكتنا على مضض عن خوض نسائنا وبناتنا فى ماهو من شأن الرجال وفى ما لم تدع الحاجة بعد إلى معاونتهن للرجال فيه ، وتركنا الأستاذة المحامية تقضى اليوم فى مكتبها ، والطبيبة الطاسية تنهض من فراشها إلى عيادتها ، والفقيهة المعلمة تنشط إلى تلاميذها ودروسها ، وقلنا هذه مسألة لم تزل الآراء مختلفة عليها ولا بأس من الصبر حتى يتبين وجه الصواب فيها .

وشكونا من التبرج الجرئ على شواطئ البحر ومن عرض الجمال عرضا رخيصا فى ثياب شفافة نمامة ناجرة ومشية متخلعة متثنية تثير الغرائز وتنبه الشهوات ، ومنينا النفس بأن يكون فى مناشدة الآباء والأزواج واستثارة غيرتهم ما يخفف من هذا المصاب ، ولا يزال الأمل قويا إذا واظب المصلحون على هذه المناشدة والاستثارة فى أن يكون فى الإمكان تدارك ما كان ، أو حمل الحكومة على التدخل بقوتها وقوانينها لتدفع عن الأسرة المصرية هذا الشر المستطير .

على أن تلك كلها عيوب ومفاسد معروضة فى الطريق بادية للأنظار . أما هذا المصاب الخفى وهو القمار الذى بدأ يتغلغل فى بيوتنا ، فما أحرانا أن نجد فى علاجه قبل أن يستفحل ويستشرى ويستعصى على العلاج !

اذا درجت سيدة البيت على أن تكون داعية الى يوم استقبال فى الأسبوع ، وعلى أن تكون زائرة لصديقاتها فى أيام استقبالهن ثلاث مرات أو أربعا فى نفس الأسبوع ، وعلى أن تتردد على المسرح والسينما ليالى أخرى تتخلل هذه الزيارات والاستقبالات ، فماذا ادخرت من الوقت لتدبير أمور البيت والإشراف على شؤون الأولاد ؟ أتراها تظن أن الأصبوحة القصيرة التى تمضى معظمها فى انتقاء ثياب الأمسية وفى اختيار الأزهار التى تهديها أو تنسقها وفى تذكر أسماء من تدعوهن ومن لا تدعوهن ، وفى مشاركة الطاهى فى إعداد قائمة ألوان الطعام وفى الطواف على المزين والخياطة وبجل الأظافر ، أتراها تظن أن هذه الأصبوحة القصيرة تتسع لكل هذا وللانصراف أيضا الى واجباتها كزوجة وأم وربة بيت ؟ اللهم لا ! وكل ما فى الأمر أنها تترك الى المربيات والخادمات أمور البيت وأمور الأولاد ويا تعس بيت يتولى أمره الخادمات والمربيات !

لقد توسعنا فى تفهم أساليب الحياة الغربية حتى سبقنا أصحابها وجددنا فيها وابتكرنا ، ولم نلق بالا إلى أن الأسرة الأوروبية الفاضلة تفرح وتمرح وتلهو وتستقبل وتزور وتزار وتدعو وتدعى ، ولكن فى حدود معقولة لا تؤثر فى مالية البيت ولا فى نظامه ولا فى تنشئة الأولاد وتربيتهم وأخلاقهم . ولقد عمدنا الى تقليد الغربيين فى رذائلهم دون أن نأخذ عنهم الفضائل التى يتحلون بها والتى تهون من شأن تلك الرذائل وتحول بينهم وبين السقوط فى مهاويها ، وهكذا صرنا فى كل ما ننقله عنهم كالقردة نفعل الشىء ولا ندرسه ولا نتفهمه ، وإنما يستهوينا بريقه فنغلو ونسرف ونشتط حتى نقلبه رذيلة وشرا مستطيرا .

والآن لا أملك أكثر من أن أهيب بالأزواج والآباء والأخوة أن يردوا زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم عن هذا المنزلق الخطر ، وأن يعودوا بهن الى حفاظنا الإسلامى وأدبنا الشرقى ، أو أن يكونوا بين ذلك قواما .

على جمال الدين